قال مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله تعالى لا يعلم أحد ما يكون في غد إلا الله ولا يعلم ما يكون في الأرحام
إلا الله ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدا ولا تدري نفس بأي أرض تموت ولا يعلم أحد متى يجيء المطر وفي رواية أخرى
لا يعلم أحد ما تغيض الأرحام إلا الله ولا يعلم ما في غد إلا الله ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله ولا تدري نفس بأي
أرض تموت إلا الله ولا يعلم متى الساعة إلا الله أخرجه البخاري وقال الضحاك ومقاتل مفاتح الغيب خزائن
الأرض وعلم نزول العذاب وقال عطاء هو ما غاب عنكم من الثواب والعقاب وقيل هو انقضاء الآجال وعلم أحوال
العباد من السعادة والشقاوة وخواتيم أعمالهم وقيل هو ما لم يكن بعد أن يكون أو لا يكون وكيف
يكون وقال ابن مسعود أوتي نبيكم صلى الله عليه وسلم كل شيء إلا مفاتح الغيب وقال ابن عباس إنها
خزائن غيب السماوات والأرض من الأقدار والأرزاق **ويعلم ما في البر والبحر** قال مجاهد البر المفاوز
والقفار والبحر القرى والأمصار لا يحدث فيهما شيء إلا وهو يعلمه وقال جمهور المفسرين هو البر والبحر
المعروف لأن جميع الأرض إما بر وإما بحر وكل واحد منهما من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته ما يدل
على عظيم قدرته وسعة علمه **وما تسقط من ورقة إلا يعلمها** يريد ساقطة وثابتة والمعنى أنه
يعلم عدد ما يسقط من الورق وما بقي على الشجر من ذلك ويعلم كم انقلبت ظهرا لبطن إلى أن تسقط على الأرض
ولا حبة في ظلمات الأرض قيل هو الحب المعروف يكون في بطن الأرض قبل أن ينبت وقيل هي الحبة
التي في الصخرة التي في أسفل الأرضين **ولا رطب ولا يابس** قال ابن عباس الرطب الماء واليابس البادية
وقال غيره ما ينبت وما لا ينبت وقيل المراد بالرطب الحي واليابس الميت وقيل هو عبارة عن كل شيء
لأن جميع الأشياء إما رطبة وإما يابسة فإن قلت إن جميع هذه الأشياء داخلة تحت قوله وعنده مفاتح
الغيب فلم أفرد هذه الأشياء بالذكر وما فائدة ذلك قلت لما قال الله تعالى وعنده مفاتح الغيب على
سبيل الإجمال ذكر من بعض ذلك الإجمال ما يدل على التفصيل فذكر هذه الأشياء المحسوسة ليدل بها على
غيرها فبدأ بذكر البر والبحر لما فيهما من العجائب والغرائب من المدن والقرى والمفاوز والجبال وكثرة ما فيهما
من المعادن والحيوانات وأصناف المخلوقات ما يعجز الوصف عن إدراكها ثم ذكر بعد ذلك ما هو أقل من ذلك
وهو مشاهد لكل أحد لأن الورقة الساقطة والنابتة يراها كل أحد لكن لا يعلم عددها وكيفيتها إلا
الله تعالى ثم ذكر بعد ذلك ما هو أصغر من الورقة وهي الحبة ثم ذكر بعد ذلك مثالا يجمع الكل وهو الرطب
واليابس فذكر هذه الأشياء وأنه لا يخرج شيء منها عن علمه سبحانه وتعالى فصارت هذه الأمثال منبهة
على عظمة عظيمة وقدرة عالية وعلم واسع فسبحان العليم الخبير قوله تعالى **إلا في كتاب مبين** فيه قولان
أحدهما أن الكتاب المبين هو علم الله الذي لا يغير ولا يبدل والثاني أن المراد بالكتاب المبين هو اللوح المحفوظ
لأن الله كتب فيه علم ما يكون وما قد كان قبل أن يخلق السماوات والأرض وفائدة إحصاء الأشياء كلها في هذا
الكتاب لتقف الملائكة على إنفاذ علمه وأنه لم يغب عنه ذلك على تفصيل الحساب وأعلم عباده أنه لا يفوته شيء
مما يصنعونه لأن من أثبت ما لا ثواب فيه ولا عقاب في كتاب فهو إلى إثبات ما فيه ثواب وعقاب أسرع
قوله تعالى **وهو الذي يتوفاكم بالليل** يعني يقبض أرواحكم إذا نمتم بالليل **ويعلم ما جرحتم** ما كسبتم
بالنهار ثم يبعثكم فيه أي يوقظكم فيه أي في النهار **ليقضى أجل مسمى** يعني أجل الحياة إلى
الممات يريد استيفاء العمر على التمام **ثم إليه مرجعكم** في الآخرة **ثم ينبئكم** أي يخبركم **بما كنتم
تعملون وهو القاهر فوق عباده** يعني وهو العالي عليهم بقدرته لأن كل من قهر شيئا وغلبه فهو
مستعل عليه بالقهر والقدرة فهو كما يقال أمر فلان فوق أمر فلان يعني أنه أقدر منه وأغلب هذا مذهب
أهل التأويل في معنى لفظة فوق في قوله وهو القاهر فوق عباده وأما مذهب السلف فيها فإنهم أمروها
كما جاءت من غير تكييف ولا تأويل بلا إطلاق على جهة والقاهر هو الغالب لغيره المذلل له والله تعالى هو
القاهر لخلقه قهر كل شيء بقدرته وقهر الحياة بالموت والإيجاد بالإعدام والغنى بالفقر والنور بالظلمة
وقوله تعالى **ويرسل عليكم حفظة** يعني أنه من جملة قهره لعباده إرسال الحفظة عليهم والمراد بالحفظة
الملائكة

٣١

الملائكة التي يحفظون أعمال بني آدم من الخير والشر والطاعة والمعصية وغير ذلك من الأقوال والأفعال قيل
إن مع كل إنسان ملكين ملك عن يمينه وملك عن شماله فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين وإذا عمل سيئة قال
صاحب اليمين لصاحب الشمال اصبر لعله يتوب منها فإن لم يتب منها كتبها عليه صاحب الشمال وفائدة جعل
الملائكة موكلين بالإنسان أنه إذا علم أن له حافظا من الملائكة موكلا به يحفظ عليه أقواله وأفعاله في صحائف تنشر
له وتقرأ عليه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد كان ذلك زاجرا له عن فعل القبيح وترك المعاصي وقيل المراد بقوله
ويرسل عليكم حفظة هم الملائكة الذين يحفظون بني آدم ويحفظون أجسادهم وقال قتادة حفظة يحفظون
على ابن آدم رزقه وأجله وعمله **حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا** يعني أعوان ملك الموت الموكلين
بقبض أرواح البشر فإن قلت قال الله تعالى في آية أخرى قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم وقال هنا توفته
رسلنا فكيف الجمع بين هذه الآيات قلت وجه الجمع بين هذه الآيات أن المتوفي في الحقيقة هو الله
تعالى فإذا حضر أجل العبد أمر الله ملك الموت بقبض روحه ولملك الموت أعوان من الملائكة فيأمرهم بنزع
روح ذلك العبد من جسده فإذا وصلت إلى الحلقوم تولى قبضها ملك الموت بنفسه فحصل الجمع بين الآيات
وقيل المراد من قوله توفته رسلنا ملك الموت حيث يشاء وجعلت له أعوان ينتزعون الأنفس ثم يقبضها منهم
وقال العلماء من أهل بيت شعر ولا مدر إلا وملك الموت يطيف بهم كل يوم مرتين وقيل إن الأرواح إذا كثرت
عليه يدعوها فتستجيب له وقوله **وهم لا يفرطون** يعني الرسل لا يقصرون فيما أمروا ولا يضيعون قوله
عز وجل **ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق** يعني ثم رد العباد بالموت إلى الله في الآخرة وإنما قال مولاهم
الحق لأنهم كانوا في الدنيا تحت أيدي موالي باطلة والله مولاهم وسيدهم ومالكهم بالحق **ألا له الحكم**
يعني لا حكم إلا له **وهو أسرع الحاسبين** يعني أنه تعالى أسرع من حسب لأنه لا يحتاج إلى فكر وروية وعقد
يد فيحاسب خلقه بنفسه لا يشغله حساب بعضهم عن بعض قوله تعالى **قل من ينجيكم من ظلمات البر** يعني
يا محمد قل لهؤلاء الكفار الذين يعبدون الأصنام من دون الله من ذا الذي ينجيكم من ظلمات **البر والبحر** إذا
ضللتم فيه وتحيرتم وأظلمت عليكم الطرق ومن ذا الذي ينجيكم من ظلمات البحر إذا ركبتم فيه فأخطأتم
الطريق وأظلمت عليكم السبل فلم تهتدوا وقيل ظلمات البر والبحر مجاز عما فيهما من الشدائد والأهوال
وقيل حمله على الحقيقة أولى فظلمة البر هو ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب فيحصل من ذلك
الخوف الشديد لعدم الاهتداء إلى الطريق الصواب وظلمة البحر ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب
وظلمة الرياح العاصفة والأمواج الهائلة فيحصل من ذلك الخوف الشديد من الوقوع في الهلاك
فالمقصود أن عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الإنسان فيها إلا إلى الله
سبحانه وتعالى لأنه هو القادر على كشف الكروب وإزالة الشدائد وهو المراد من قوله تعالى **تدعونه
تضرعا وخفية** فإذا اشتد بكم الأمر تخلصون له الدعاء تضرعا منكم إليه واستكانة جهرا وخفية
يعني سرا وحالا وقالوا **لئن أنجيتنا من هذه** يعني فإنهم في حال الدعاء والتضرع لئن أنجيتنا من هذه الظلمات
وخلصتنا من الهلاك **لنكونن من الشاكرين** يعني لك على هذه النعمة والشكر هو معرفة النعمة مع
القيام بحقها إلى المنعم بها **قل الله ينجيكم منها** يعني من الظلمات والشدائد التي أنتم فيها **ومن كل
كرب** يعني وهو الذي ينجيكم من كل كرب أيضا والكرب هو الغم الشديد الذي يأخذ بالنفس **ثم أنتم
تشركون** يريد أنهم يقرون بأن الذي أنجاهم من هذه الشدائد هو الله تعالى ثم إنهم بعد ذلك الإقرار
يشركون معه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع قوله عز وجل **قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا
من فوقكم** أي قل يا محمد لقومك إن الله هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم يعني الصيحة
والحجارة والريح والطوفان كما فعل بقوم نوح وعاد وثمود ولوط **أو من تحت أرجلكم** يعني الرجفة
والخسف كما فعل بقوم شعيب وقارون وقال ابن عباس ومجاهد عذابا من فوقكم يعني أئمة السوء
والسلاطين الظلمة أو من تحت أرجلكم يعني عبيد السوء وقال الضحاك من فوقكم يعني من قبل كباركم

الله يتوفى الأنفس حين موتها وقال في آية أخرى